الثورة
الاربعاء 2 ذو القعدة 1433هـ 19 سبتمبر 2012م العدد (17473)

أنقرة..

هدأة في الليل وعبق في النهار

لقد كنت محقا عندما أسميت معرضي الذي أقيم على أراضي العاصمة التركية «أنقرة» الإنسان واشتعالات الروح نبض للخلاص ..وكأن التسمية كانت مجرد نبوءات وشغف للحظة استفسار متى يستيقظ الإنسان من سباته الأرعن ليستفيق علّه يلمس بعض الجوانب الحضارية لجيله الأول ويعلم أن هناك كانت فتوحات بغية الكشف عن طبيعتها ومكانتها التاريخية، وما القيم الثقافية التي كانت تدفع الإنسان الأول لتحقيق النور والفعل الإيجابي دائما، تعددت آرائي وأنا أحلق لأول مرة لدولة إن قلت أنها أوروبية فهي كذلك ، وإن قلت أنها شرقية فهي كذلك الأمر سيان.

اجتهدت وأنا أسجل كل أرائي في ذهني عند كل لحظة خاصة وأنا أسافر هذه المرة في معرض خاص بي لا يشاركني فيه أحد ، يعني لم يكن هناك بجانبي إنسان يشتعل ثرثرة ، ويزعجك بصخبه المستمر أتحفني القدر في رحلتي أن كنت وحيداً حتى أتامل أكثر دون تعب في الإطراءات غير الصائبة كل مرة أكون طبيباً لمن حولي متناسياً ذاتي بخلاف هذه المرة.

خمس ساعات في الجو نقضيها في الرحلة الأولى من صنعاء إلى إسطنبول، أعتقد كافيه ان تسجل عوامل البقاء والاستمرارية فماذا لو كانت هناك أيضاً رحلة داخلية تمكث قرابة الساعة أيضاً في الجو ما بين إسطنبول وأنقرة ويمنحني القدر أربعين دقيقة أيضا منحة إضافية أستميت فيها هدوءاً مختلفا وأنا على الأرض ؟ لأن من استقبلني بالسيارة لا يتحدث إلا التركية، اكتفينا بالسلام الإنساني الجميل وغرقت في التأمل في الذات والمحيط من جديد ومن هنا تبدأ الحكاية، أعتقد هذه السويعات وأنت تتماهي مع الهدوء في أفق السموات والأرض جديرة أن تخرج كل الغبار الذي امتلأ به الجوف من قسوة الإنسان لأخيه الإنسان، لا أريد أن أتحدث عن تفاصيل الرحلة بقدر ما أريد أن أقول: إن السفر من مكان إلى مكان إذا لم يكن لأجل قراءات الذات والمحيط بشكل علمي وروحي وفلسفي فليس له أي فائدة تذكر سوى الصخب واللطم والولدنة ولو بعد حين، والقراءة بذلك الشكل جداً مهمة حتى تتخلص من سموم عوادم البشر وما أكثرها، من هنا جاءت الرواية ومن هنا يجب التأمل فيما أقول:

رجاءً من يقرأ لهذه السطور أن لا يسمع لأحد إلا إن تأكد أنه حق فهناك أصوات غير صائبة أرجو عدم السماع لها حتى لا تضطرون للقسوة مرات ومرات، فالعنف لا يكشف إلا على أن هناك دماراً محققاً لن يزول بسهولة بخلاف المحبة، ومهما تعددت الآراء حول فوائد السفر سيظل من أهم فوائده هي هل حقق السلام الداخلي أم لا وماذا بعد؟

محفوظ عبدالله حزام

صباح جديد آخر

في الصباح تستقبلك الشمس لتأخذك إلى متحف أنقره للصور والمنحوتات وهناك تبدأ حكاية أخرى من الانتصارات الروحية، يستقبلك جموع من الأناس الكل يتفانى ليذهلك برقته ورقيه وعلى الرغم من أن اللغة مختلفة تماماً، إلا أن النبض الصادق وحسب هو الفيصل، أجمل ما في أولئك الأناس هو إيمانهم العميق بك وبكل شيء سيضيف للخلود شيئاً مثل ذلك الحرص هو ما يسمو بالفرد نحو الهدف الإنساني الذي يشعل فتيل رغبة العمار والبناء والإنتاج في محبة الآخر، إن صياغة مفردات الإنسان التركي ليست صعبة ولكنها في نفس الوقت ليست سهلة إلا أن ما يمكن الإجماع عليه هو أن صدره مفتوح للجميع ومحب للآخر خاصة الإنسان اليمني، وسيبقى الإنسان التركي حكاية رائعة فالود الذي وجدته كان جديراً أن يجعلني أصيغ ثمة قصائد وألحنها على أمل أن أغنيها بصوتي يوماً ما.

جلسة تأمل

وأنت مسترخ على سرير غرفتك الخرافي ترى جوانب أنقرة بمنتزهاتها الشاسعة والمنظمة وقلعتها الشاهقة وحدائقها الواسعة والساحرة وعماراتها المرتفعة جداً تناديك فلا تجد بديلاً سوى أن تترك سريرك لتحلق إلى كل تلك الأمكنة، لكن الحقيقة أن الوقت ينتهي وأنت مازلت لم تر شيئاً لأن كل شيء يستحق أن تراه، يستحق أن تقرأه وتنظر إليه وتتأمل فيه بذكاء، كل شيئاً في أنقرة وما لم أذكره حكاية مفتوحة لا أحد يستطيع الإحاطة بها وإن اجتهد كثيراً.

نبض أنقره

سبعة ملايين يقطنون أنقرة، لكنك لا تسمع صخباً، تراهم يمضون كالسيل الجارف خاصة في أحياء مراكز التسوق مثل «كيزلاي» أو الشوارع العامة والحدائق لكنك لا تشعر إلا بأريج الورد .. هادءون لا يجيدون الازعاج، حتى وأنت تستقل الباصات العامة أو غيرها لا تشعر بوجودهم رغم أمتلاء الباص بهم .. هم هكذا يملأونك باللطف والسكينة والهدأة وأنت تجاورهم، ما أسرع ما يقع بصرهم عليك وما أكثر من يقع بصره عليك ليس إلا ليمنحوك تحية باسمة ناعمة صادقة قد تتجاوز إلى الفعل الإنساني الأخاذ.

الزي اليمني

قررت أن أرتدي يوم الافتتاح الزي اليمني مع الجنبية طبعاً والشال حتى أكون لوحة أخرى لكنها متحركة لتحكي عن حضارة بلد عريق هي (اليمن) فانبهروا به، وما إن يراك الزائر لا تجده إلا يقول: وآو .. ويطلق عبارات «شوك قوزل» بمعنى جميل جداً والحال ذاته حين تمر والطريق وأنت ذاهب إلى الفندق سمعت هذه العبارة آلاف المرات حتى أن الكثير منهم يوقف السيارة حتى أقطع الطريق أو لينزل منها ليسلم عليَّ بدفء عجيب لا تتمالك أمامه إلا أن تقول :هل أنا في السماء أم في الأرض، مثل هذه المشاعر تتواتر وتتكرر في كل زاوية وفي كل مكان، كنت أظن أنهم يشبهونني بنجم سينمائي. أردت ارتداء بذلاتي التي خسرت عليها كثيراً، لكن لم أستطع إلا بالعافية فإذا بهم بنفس الانبهار يرددون نفس العبارة «شوك قوزل» تعجبك هؤلاء الكائنات الجميلة وهم يغمرونك بلطفهم وحنينهم المتواصل والذي يفتر لحظة لولا إدراكي أنني محفوظ حزام لاعتقدت أنني (جيمس بوند) أو شاروخان من زخم الاحتفاء حتى وأنت في السوق ذهبت لتشتري شيكولاته .. فجأة فإذا بهم يملأون ذاكرتك بعبارات كثيرة ساحرة وباهرة يضيفون لك جمالاً على جمال ويغنونك عن تناول الشيكولا .. مثل هذا الاحتفاء يقدمه لك الإنسان العادي وغير العادي سواءً عند خروجي من الفندق ومروراً بالأسواق التي تحيط به أو في الطريق المؤدية إلى المتحف مكان إقامة معرضي أو في الأسواق أو المتنزهات أو في المسجد.

بذرة للسعادة وبذرة للتعاسة

الحضور الذي صنعه الطلاب اليمنيون ومن الجنسين بأنقرة لم يكن مفاجئاً لأن تلك ثقافة طلاب العلم اليمني أينما كانوا فهم دائماً من يشكلون طلائع الفتوحات للفن والذوق والعلم والمعرفة والأخلاق والشغف بالجمال، فدوافعهم دائماً تدعو للبهجة والسرور وهم الرهان الرابح دوماً لمستقبلنا، أعتقد أنها بذرة للسعادة، وحقاً للتحصين من فيروسات الساسة وبعض الدبلوماسيين، يؤسفني جداً وأنا أرى السفارة اليمنية بأنقرة مجرد دكان صغير لا يبيع إلا البؤس والإحباط ولِمَ لا وجميع اليمنيين هناك بالإجماع يشكون منها، ولِمَ لا وهم مجرد منتفعين فقط من مناصبهم ولا يقدمون رغم ذلك أي شيء يذكر وإن جادوا بشيء خوفاً فلن يتجاوز ذلك إلا بالقول فقط أما الأفعال وكأن الجسد قد مات.

من الأهمية بمكان أن أقول لوزير الخارجية وحسب كلام السفير هناك والملحقية في اتصالاتهم الهاتفية معي يحملونك مسؤولية تقصيرهم وبشكل صريح ونحن نعلم إن كانوا هم على صواب وغير منتفعين ويرون أنهم أداة لظلم الآخر فلماذا لا يقدمون استقالاتهم .. هل تعلم أن احدهم يستأجر منزلاً هناك بثلاث آلاف دولار بينما هناك الكثير من المرضى لا يجد العلاج إلا عن طريق المشاعر الإنسانية الراقية للدكاترة الأتراك .. ما هذا العبث أيها الأطراف العجيبة لماذا تعززون في المبدعين ومن أنتم مسؤولون عنهم في بلاد الغربة الأسي والضياع، تبت يداً تحاول أن تعبث بالبهاء، حملني جميع اليمنيين بأنقرة مسؤولية توضيح مدى معاناتهم وتجاهلهم من السفارة، أتمنى أنها قد وصلت ولا بد لبذرة التعاسة هذه أن تستأصل تماماً مثل هذا المشهد، ما كنت أريده أن يضاف هنا وهذا للأمانة لكن أصوات الكثير من اليمنيين المجروحين هناك حملوني أمانة عاهدتهم أن لا أتقهقر عنها، أرجو لوزارة الخارجية أن تتأمل في ذلك وأن تثبت من يقصر في حق الرعايا، وأن تجد حلاً سريعاً ناجعاً وأن يتعلموا ويستفيدوا من محبة الآخرين للآخر فلا حياة ولا عطاء بل عدل ومحبة وعطاء وستذكرون ما يقال لكم.

وهنا استأذن كل الرائعين من حملوني مسؤولية البلاغ المبين لأرسم لحظة الوداع.

لحظة الوداع

قد كنت حزيناً للفراق، وما إن صعدت على متن الطيارة وجدت حُسن حظي يرافقني أن جاورني شخصية تركية تجيد بعض العربية، أتحفني سبب مجيئه إلى اليمن، طبعاً لن يستطع أحد أن يتكهن لماذا؟ لقد جاء ليصلي في الجامع الكبير وسوف يستمر ثلاثة أيام فقط ليحضر صلاة الجمعة، الحوار الذي دار بيني وبينه لخمس ساعات تنقلنا بين أروقته حول مدى مشاهد الترابط بين تراثنا وحضارتنا فوجدنا فعلاً أن البلدين وجهان لقمر واحد .. ها نحن وصلنا إلى مطار صنعاء وما زال الليل يغيم على السماء لكن القمر باقية تضيء وداعنا الذي سيكون يوما ما نوراً أبدياً .. إلى اللقاء.